القسم الثانى

مغامرات تاجر

ظل الانكليز متخلفين فى التوسع التجارى ، الذى اعقب اكتشاف جزائر الهند الغربية ، وطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند • بينما اسرع الاسبان الى استكشاف جزائر الفلبين ، والفرنسيون جزيرة صوماترة ، والبرتغاليون العديد من الاراضى فيما وراء الهند • ولم ينشد البحارة والتجار الانكليز تثبيت اقدامهم فى بلاد الشرق وتوطيد تجارتهم معه الا بعد ذلك • وكان الفنيسيون (أهل البندقية) يسيطرون على تجارة الشرق وحدهم • ومنذ عام ١٥١١ بدأ الانكليز يتاجرون مع الجزر اليونانية ومع سوريا • فكانوا يستوردون الزبيب المعروف بزبيب كورنثيا من اليونان ، ويستوردون التوابل، والحرير الخام ، والقطن ، والمنسوجات الاخرى من سوريا • ولم يقتصر هدفهم من الاتجار مع الشرق على الكسب وحده ، بل ايجاد اسواق للمنسوجات الصوفية التى تفيض عن حاجة بلادهم • ذلكم لان الانكليز كانوا لا يرضون بيع ما يتراكم لديهم من اصواف خام الى الاقطار الاخرى ، خشية مزاحمة ما يصنعونه من منسوجات ، بل كانوا يجاهدون فى سبيل تصريف ما كانوا ينتجونه من أقمشة الى تلك الاقطار •

وبدىء بالمتاجرة مع تركيا عام ١٥٣٣ عندما سافر انتونى جنكنسون[1] الى حلب • وفاز بالحصول من السلطان سليمان القانونى ، على رخصة

(١) Antony Jenkinson.

تجيز للتجار الانكليز المتاجرة مع الاتراك بشروط مماثلة للشروط التى يتاجر حسبها الفرنسيون والفنيسيون[٢] وســـواء أأدت تلك المحاولة الى الربح التجارى السريع ، أم لم تؤد فان التجار الفنيسيون لم يرضوا بوجود مزاحمين لهم فى تركيا • وفى الوقت ذاته قام تجار آخرون بمحاولة ثانية لتأسيس علاقات تجارية مع أهل الصين ـ القطر الذى كان فيه مجال واسع لتصريف جميع ما يفيض من المنسوجات الصوفية الانكليزية • وقدر لهذه البعثة ان تفشل فى الوصول الى الصين باقتفائها الطريق الشمالى ـ الغربى ولذا فقد سلكت الطريق الشمالى ـ الشرقى • ومع هذا فقد هلك جميع اعضاء البعثة التجارية ، ولم يسلم منها الا ربان السفينة ، الذى ادركته سفينة عابرة ، فأوصلته الى مكان يقع فى شمال روسيا • فلما بلغ هذا الربان موسكو ، استطاع الحصول على رسالة من القيصر الى الملك ادوارد السادس، يدعو فيها التجار الانكليز الى ارتياد بلاده ، مانحا اياهم سوقا حرا ، وحريات مطلقة • وقد رأى جنكنسون ،بثاقب رأيه ، ان المتاجرة بمدى واسع مع الشرق ، لن تتحقق الا فى اقطار تقع شرق سوريا • ولهذا فانه عندما ارسل على رأس بعثة تجارية الى روسيا عام ١٥٥٧ رفع تقريرا مستفيضا مؤيدا فيه ما سبق ان اقترحه بشأن المتاجرة مع اقطار الشرق • وقد شق طريقه الى بخارا وسط مخاطر ، تبرر له ان يتفاخر ، بأنه أول من رفع صليب القديس جورج على مياه بحر الخزر •

ووجد جنكنسون بخارا لا تليق ان تكون مركزا للتجارة الانكليزية ومع ذلك فان بقائه فيها لم يكن بغير جدوى • فباتصاله بالتجار الهنود ، عرف ان بلاد البنغال لا تستهلك مقادير كبيرة من المنسوجات الصوفية •

---

(٢) سكان فنيسيا أو البندقية •

وفى طريق عودته وجد فى مدينة استراخان بضائع انكليزية كثيرة ، استوردها تاجر ارمنى من سوريا ، وعرضها باسعار لم يكن بمقدور جنكنسون مزاحمتها • ولهذا لم يبق امامه الا بلاد فارس ، حيث المجال واسع لبيع المنسوجات الانكليزية • وبعد ان عاد الى انكلترة، استحصل رسائل من الملكة اليزابث موجهة الى قيصر روسيا والى « الصوفى العظيم »[1] • وعاد الى الشرق مخترقا روسيا حتى مدينة قزوين وكانت مقر الحكومة الفارسية يومذاك • وقد اغتنم جنكنسون فرصة قيام حرب بين تركيا وفارس ، وما اكثر ما كان يقع بينهما من حروب ، فحاول استمالة الشاه ، بعرضه عليه اكتشافه طريقا تجاريا امينا بعيدا عن الاعتداءات التركية • ولم ينجح بمحاولته تلك ، لان وفدا تركيا وصل الى قزوين واخذ يفاوض الشاه من أجل عقد صلح بين الدولتين • ومن الامور التى ساعدت على عرقلة المفاوضة مع الشاه طهماسب (شوتوماس كما كان يدعوه الانكليز) جهل الايرانيين لانكلترة ، وتعذر حصول من يستطيع قراءة رسائل الملكة ، التى كتبت باللغات اللاتينية والايطالية والعبرية ، واخيرا العداء الذى اظهره مستشاروا الشاه لجنكنسون نتيجة تعصبهم الدينى الذى لعب دورا هاما فى شل تلك المفاوضات • فعندما انتهى الاجتماع الاول نهاية غير مرضية ، لمناقشة دينية جرت اثناء الاجتماع ، وترك جنكنسون القصر ، مسح الخدم مواطىء اقدامه بالرمل تطهيرا لارض القصر من النجس •

ومع ما لاقته البعثة من بداية غير مشجعة ، فانها نجحت فى مسعاها التجارى • فقد اعقب هذه البعثة تعيين وكلاء مقيمين لشركة موسكو ، وبعد ذلك بستة اعوام منح الشاه التجار الانكليز امتيازا ، يمكنهم من الاقامة فى

---

(١) شاه ايران •

ايران والمتاجرة مع أهلها • وساعدت فى ذلك ان الشاه نفسه أبدى رغبة فى المتاجرة مع انكلترة ، وربما كان يبطن من وراء تلك الرغبة اغراضا غير اقتصادية • وصادف ان سافر وكيل الشركة الى تبريز ، فوجد أسواق تلك المدينة تزخر بالبضائع الانكليزية ، التى استوردها تجار ارمن ، من حلب أو من البندقية • وكان من أعمال تلك البعثة ان عقدت صفقات تجارية ومالية مع التجار الايرانيين ، مع ما كان يكتنف التجارة من مصاعب جمة ابرزها انتشار قطاع الطرق فى مختلف المسالك المؤدية للمدن الايرانية الهامة ، وشيوع القرصنة فى بحر الخزر ، وشدة القيود الروسية المفروضة على التجارة الاجنبية ، وتراكم الديون بذمم المتنفذين الايرانيين ، الذين اعتادوا التلكوء فى تسديد ما عليهم من ديون •

وليس المتنفذون الايرانيون وحدهم ، الذين كان على التجار الانكليز ان يحسبوا لهم حسابا ، فان هناك بعض المتنفذين الانكليز ، الذين يتحتم على التجار كسب رضاهم • فعندما ساهمت شركة شرق الهند فى طرد البرتغاليين من جزيرة هورموز فانها اضطرت الى تقديم جميع ما حصلت عليه من مغانم الى الدوق بكنجهام ، صديق الملك المدلل ترضية له • لقد جرى ذلك بعد نصف قرن من التاريخ الذى نحن بصدده ، ومع ذلك فانه يعكس صورة ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل • كانت جزيرة هورموز عند بدء نفوذ التجارة الانكليزية الى ايران ، هدفا للتجار الانكليز ، سيما وانها لم تكن تبعد عنهم الا مسيرة ستة اسابيع ، وانها سوقا حيا يسيطر عليه حكامها الايرانيون • وبعد ان احتلها البرتغاليون ، ظلت طيلة قرن كامل سوقا تجاريا زاخرا بالثروة والمال • فكانت البضائع تتوارد عليها من الصين ، وجزائر الهند الشرقية ، وسيام ، والهند ، وتستبدل تلك البضائع بالحرير والخيول

ولآلىء البحرين • وكانت تجارة شمال ايران يومذاك ضعيفة بالنسبة لما كانت عليه فى جزيرة هورموز ذلكم لان الطريق الى شمال ايران طويل محفوف بالمخاطر • يضاف الى ذلك انه لم يكن من السهل مزاحمة التجار الارمن ، ولذا فقد اضطر وكلاء الشركات التجارية الانكليزية الى ترك مراكزهم التجارية فى ايران • وقد تكررت المحاولة ذاتها بعد قرنين من التاريخ الذى نحن بصدده وللاسباب ذاتها فشلت المحاولة الثانية ايضا •

وكان ممثلوا التجارة الانكليزية فى ايران ، يتمتعون بالنشاط والمقدرة؛ ومعروفون بالامانة والسمعة الحسنة • حتى ان الشاه عندما اراد تقديم هدية مالية الى الحرم الشريف بالحجاز ، فانه اشترى عملة انكليزية من اولئك الوكلاء ، زاعما ان ما كان لديهم من مال ، هو مال حصلوا عليه بطرق مشروعة ، وأساليب شريفة • بينما كان ما بين يده من مال « مجموع بطريق الخداع والضغط وباساليب غير شريفة » • ومال جمع بالكيفية المذكورة لا يليق تقديمه الى النبى الكريم • وعلى العموم فان ثقة الناس بالوكلاء الانكليز، وما كانوا يتمتعون به من سمعة حسنة ، ثبتت اقدامهم فى الشرق الاوسط ، واتخذها التجار ركيزة لنشر تجارتهم فى هذه الاصقاع • وجاء ، ما قامت به وزارة الحربية من تصرف ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى ، مثبتا للمعتقد السائد فى الشرق الاوسط ، بأن كلمة الفرد الانكليزى وعدا عليه • ففى نهاية الحرب ، قدم تاجر تركى ، مجموعة كبيرة من السندات المالية ، التى تثبت صحة المبالغ التى استدانها منه الضباط الاسراء من الانكليز • من كان منهم فى قيد الحياة اسرع ودفع ما كان بذمته ، ومن توفى سددت وزارة الحربية ما فى ذمته من دين •

وبذلت جهود ، اثناء الفترة التى تمت بها محاولة تأسيس علاقات تجارية

مع ايران ، من اجل تحقيق مشروع جنكنسون فى تركيا • ولان تلك الجهود جاءت بعد وفاة السلطان سليمان ، فقد اقتضى الحصول على اجازة جديدة ، لان مفعول اجازة السلطان تنتهى بانتهاء حكمه • وهذا ما دعى طائفة من تجار لندن الى ارسال مبعوث الى الاستانة ، ليمهد السبيل الى بعثة تجارية رسمية • وسافر أول سفير الى الباب العالى عام ١٥٧٨ مقتفيا طريقا بريا ليكون فى مأمن من عيون مزاحمى التجارة الانكليزية فى البحر المتوسط • ومع كل ما لاقاه من مقاومة من لدن السفير الفرنسى ، فأنه وفق فى مهمته وعاد الى انكلترة حاملا رسالة من السلطان مراد الى الملكة اليزابث ، فيها تأكيدات وافية ، يسمح بحسبها للتجار الانكليز ان يدخلوا البلاد العثمانية ، ويتاجروا مع أهلها ، ثم لهم ان يتركوها دون ان يتصدى لهم من يمنعهم عن ذلك ؛ وبالشروط ذاتها التى يتمتع بها الفرنسيون ، والفنيسيون ، البولونيون واتباع ملك المانيا •

وقد منحت الملكة اليزابث ، عام ١٥٨١ ، أولئك التجار الذين قاموا بتلك المحاولة ، براءة المتاجرة وحدهم ، مع اقطار « السنيور العظيم » — السلطان • وكان هذا التخويل بداية لتأسيس شركة الشرق[1] ، التى ظلت قائمة حتى عام ١٨٢٥ ؛ وان كانت فى اخريات أيامها شبحا لما كانت عليه عند أول تأسيسها • ولاقت الشركة معارضة شديدة فى عام ١٦٠٥ ، عندما طلبت تمديد البراءة الممنوحة لها ، وتوسيع مجالات فعالياتها ، بحيث تشمل القيام ببعض الاعمال السياسية ، اضافة الى ما كانت تمارسه سابقا من اعمال تجارية فى تركيا • ومما دفعها لهذا الطلب ، ان الشركة استطاعت اطلاق سراح عدد من الارقاء الانكليز ، كما انها تمكنت من اقناع الباب العالى ،

(١) Levant Company.

لرفض اقتراح تقدمت به اسبانيا لعقد اتفاق عدم اعتداء بين البلدين • لان الاتفاق سيسير لاسبانيا سحب جيوشها المرابطة عند الحدود التركية ، واستخدامها فى حرب الارمادا مع الانكليز فى عام ١٥٨٨ • وفى هذا ما يزيد من متاعب انكلترة •

ولا ريب انه لم يكن ثمة حدود معينة ، بين فعاليات الشركة التجارية منها ، والسياسية • فمن مهام السفير مراقبة القناصل عند تأديتهم وجائبهم التجارية والادارية • ومع انه كان الممثل الدبلوماسى للتاج لدى الباب العالى ، فان الشركة هى المسؤولة عن رواتبه ورواتب القناصل الذين يعينهم، وما يحتاجونه من تكاليف عملهم الرسمى • وقد ادت معارضة مطاليب الشركة السابقة الذكر ، الى جعل وظيفة السفير وظيفة سياسية ، وتقوم الحكومة بتعيين من يشغل هذا المنصب وبالانفاق عليه • أما القناصل فظلوا تابعين الى الشركة حتى عام ١٨٤١ • وعلاوة على ذلك فان الشركة هى التى تستخدم القسس للقيام بالطقوس الدينية للجالية الانكليزية • فقد أمضى القس ادورد بوكوك[١] ، خمسة أعوام بمدينة حلب ، فى الخدمة الدينية للجالية الانكليزية • قبل ان يعين لاشغال كرسى استاذية اللغة العربية بجامعة اوكسفورد ، ذلك الكرسى الذى أوجده رئيس الاساقفة لود • وكان بوكوك هذا مستشرقا عظيما جمع طائفة من المخطوطات القيمة التى لا زالت مكتبة بودلين تحتفظ بها •

واستعملت القنصليات فى سوريا قواعد لرحلات استكشافية هامة • ففى الرحلة الثانية قطع الربان روبرت نيوبرى[٢] الطريق البرى من حلب حتى البصرة • ثم سافر من هذه المدينة الى جزيرة هورموز • ومع كل ما بذله

(١) Master Robert Newberry. (٢) Rev. Edward Pocock.

الفنيسيون من جهود ، لتحريض الحاكم البرتغالى ضد نيوبرى ، فانه مكث فى مأمن لبضعة اشهر بهذه الجزيرة ، ثم سافر منها الى بندر عباس ، ومن هذه الى القسطنطينية عبر الطريق المار من بلاد فارس فتركيا • ثم عاد الى انكلترة بعد غياب عامين عن طريق رومانيا ، وبولونيا • وتعد رحلته الثالثة أهم رحلاته الثلاث ، لانه فى هذه الرحلة ، شق الطريق الى الهند والخليج الفارسى ، ولكنه لاقى حتفه بشكل مجهول • ودون رفيقه رالف فش جميع اخبار تلك الرحلة • ففى عام ١٥٨٣ سافر نيوبرى وفش واثنان من رفقائهما ، من سوريا على ظهر سفينة « تمر لندن » ، السفينة التى خلد ذكرها شكسبير فى روايته مكبث ، سالكين الطريق الذى سلكه نيوبرى فى رحلته الاولى • فلما بلغوا جزيرة هورموز القى القبض عليهم وارسلوا الى غوا ، ولكنهم فروا منها متخفين • وفى طريق عودتهم اختلفوا فيما بينهم فسلك نيوبرى طريقا يذهب به الى شمال الهند ، وانقطعت اخباره ، ولم يعرف له من مصير • أما زملاؤه الباقون فعادوا الى ارض الوطن • ومع فقدان رئيس البعثة ، فان الرحلة تعد ناجحة فى مهمتها ، لانها اظهرت ان المتاجرة مع الهند عن طريق الخليج الفارسى محفوف بالمخاطر ، لما يظهره البرتغاليون من عداء نحو الانكليز ، وان الطريق الامين الوحيد هو الطريق البحرى وان كان طويلا جدا •

ومع ما كان يعانيه الرحالة الانكليز فى اسفارهم من مصاعب ومن اخطار ، فان عددا ليس بقليل منهم عاد الى انكلترة سالما • وان البعض أمثال جنكنسون ونيوبرى لم تثنهم المخاطر عن السفر الى الشرق الاوسط مرات متعددة • وكانت نسبة الوفيات بينهم عالية ، ولا تعزى تلك النسبة الى ما كان يلاقيه الاجانب من تعديات ، مع ان بعضهم ذهب ضحية تعديات قطاع

الطرق ، وان احدهم أحرقه ديوان التفتيش البرتغالى فى جزيرة هورموز ؛ وانما تعزى الى كثرة الاوبئة والامراض كالملاريا والدسنترى وغيرهما • وللتثبت من صحة تلك النسبة لا بد من مقارنة عدد الوفيات بين الاوربيين فى الشرق الاوسط وعدد الوفيات فى انكلترة حينذاك ، وقد كان سكان انكلترة فريسة للكوليرا وللتيفوس وحتى للطاعون • ومما كان يزيد فى وفياتهم استعمالهم العلاجات التى هى أقرب الى السحر منها الى العلاج الطبى •

ولم يكن من السهل على الرحالة الاجنبى تعلم لغات البلاد التى يرتادها فكان يحرف الكلمات الشرقية ويستعملها فيما يكتبه من كتب استعمالا مشوها• مثله كمثل الانكليزى الذى شاهد فى الهند موكب عزاء الحسين ، فكتب يقول ان الموكب ينادى « هوبسن ـ جوبسن » أى الحسن والحسين • وكان الاجنبى يسعى الى تقريب الكلمات الاجنبية الى لغته • فمثلا سمى الشاه طهماسب « شوتوماس » والخليفة عمر « هومر » وهكذا • ولا ريب ان جهله اللغات المحلية أوقعه فى مشاكل عدة • فرسائل الملكة اليزابث الموجهة الى شاه ايران كانت معنونة الى « الصوفى العظيم » • والانكليز بعملهم هذا كانوا لا يفرقون بين « الصوفى » و « الصفوى » لقب الاسرة الحاكمة • وان نعتهم الشاه « بالصوفى » لا يعنى تعظيمه • فالصوفى درويش يقضى حياته فقيرا • وقد استعمل اول سفير لدى الباب العالى اللغة اللاتينية فى مراسلاته مع الحكومة التركية • ولم يكن موفقا فى مراسلاته تلك • ففى احدى المرات ، كتب رسالة شديدة اللهجة ، متهما الموظف التركى المسؤول عن تحرير الرسائل ، بأنه أخطأ فى مواقع ثلاثة عند ترجمة رسالة السلطان ؛ وطلب الا تكرر تلك الهفوات •

ومع كل ما تقدم ذكره من مصاعب ومشاكل فقد استطاع اولئك الرحالة جمع معلومات كثيرة هامة عن الاقطار التى ارتادوها • فكانت رسائلهم الى رؤسائهم فى انكلترة غير مقتصرة على المعلومات التجارية وحدها • وانما كانت تتضمن بعض الملاحظات عما يجتازون من طرق وعما يكتنفهم من أوضاع • وربما تناولت رسائلهم المعتقدات الدينية السائدة فى الشرق • ونستطيع ان نؤكد ان البعض مما جاء فى تلك الرسائل ، لا زال منطبقا على الاوضاع الراهنة بايامنا هذه ، فى بعض اقطار الشرق الاوسط • فالسفن النهرية التى كانت تسير فى نهر الفرات ، والاكلاك التى كانت تسير فى نهر دجلة ، لم تتغير منذ ذلك التاريخ حتى الان • كذلك لم تتبدل أساليب المعيشة عند ساكنى الاهوار ، وهم يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون فى الامس • كان عربى الاهوار يومذاك يجهل استعمال البندقية ، ويخشاها ، ولكنه منذ عام ١٩١٤ اتقن استعمال هذا السلاح ، واخذ يهدد به الناس • وكان يسرق بندقية الجندى الانكليزى النائم ، بالمهارة ذاتها عندما كان يسرق ، فى عام ١٥٨٣ ، محفظة جون الدريد من تحت رأسه •

أما التجار الانكليز فقد كانوا سريعين فى ادراك ما يسىء الى أهل أقطار الشرق ، ويتفادون ذلك • فعندما طلب شاه ايران كميات كبيرة من البضائع الانكليزية ، ومن بينها مائة فرشاة للملابس ، كتب وكلاء شركة الشرق طالبين صنعها من غير شعر الخنزير • كما انهم حذروا شركتهم من نعتها الشاه بالصوفى • ولم يكن البعض من التقارير التى قدمها وكلاء الشركة عن مصادر الثروة فى الشرق ، ذات أهمية للتجارة الانكليزية يومذاك • لكنها أصبحت بعد ذلك ذات أهمية بالغة ، بالنسبة للمصالح البريطانية • فمثلا عندما قدم أحد الانكليز القاطنين فى ايران تقريرا ضافيا عن استعمال

سكان ايران ، زيت باكو وقودا ، وكانت باكو يومذاك اقليما فارسيا ، لم يعن به ، واهمل • وبعد مضى بضعة قرون استغلت المهارة الانكليزية ، والرأس مال الانكليزى ، فى انماء حقول نفط باكو ، وحقولا اخرى فى جنوب المملكة • ودون جنكنسون فى تقاريره ، ان عرق السوس يكثر عند جانبى نهر الفولغا ، ولم يكترث احد بتلك الملاحظة ، فلما انتشرت صناعة التبوغ ، قامت احدى الشركات الانكليزية بتصدير عرق السوس من بلاد القوزاق ، وبلاد الاناضول ، ومن سوريا والعراق • ولا زال الكثير من الجنود البريطانيين ، الذين خدموا خلال الحرب فى العراق ، يذكرون « المكينة » بالقرب من البصرة • ويعنون بذلك ماكنة السوس حيث تحزم العروق وتصدر خارج العراق •

وقد بدأ الميل للارتياد يظهر عند الانكليز ، فى عهد هنرى السابع ، ونظمت رحلات الى روسيا قبل وفاة ادورد السادس • ولكن الاستكشاف والتوسع التجارى ، لم ينمو ويترعرع الا فى عهد الملكة اليزابث • ويعزو هاكلويت ذلك الى اهتمامها الخاص بتوسيع التجارة الانكليزية ، وحمايتها لها • ومع ان هذا المؤرخ يعترف بان الاسبانيين ، والبرتغاليين ، والفرنسيين ، سبقوا الانكليز فى الارتياد التجارى ، الا انه ينوه باعجاب ، عن الاعمال الاستكشافية ، التى قام بها الانكليز فى عهد ملكتهم اليزابث • ومما اورده فى فاتحة « رحلاته » • ــ « أى ملوك هذه الارض خفقت بنوده على بحر قزوين قبل جلالتها ؟ بل أى منهم استطاع التعامل مع امبراطور ايران ، كما تعاملت جلالتها معه ، فاستطاعت الحصول على امتيازات كثيرة وحسنة لتجارتها ؟ بل من شاهد قنصلا انكليزيا فى طرابلس الشام وفى حلب والبصرة ؟ واكثر من هذا كله ، من سمع انكليزيا فى غوا قبل اليوم ؟ » •

الحق انه لم يشاهد احد قبل عهد الملكة اليزابث ، سفيرا انكليزيا لدى الباب العالى ، بالقسطنطينية أو قنصلا انكليزيا فى طرابلس أو حلب أو بغداد أو البصرة • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففى آخر يوم من أيام عام ١٦٠٠ منحت الملكة شركة شرق الهند براءة منحتها بها حق احتكار المتاجرة مع الشرق كله • فان ما كان يستورده البرتغاليون والهولنديون من بضائع غنية ، اثارت اطماع التجار الانكليز ، ودفعتهم الى المساهمة بتجارة رابحة كتلك التجارة • وان اندحار الارمادا الاسبانية ، دعت الانكليز الى تحدى الادعاء القائل بان الاسبانيين والبرتغاليين هم المحتكرون لتجارة الشرق • ومما يجب الا يغفل بهذا الصدد ، ان شركة شرق الهند أسسها اعضاء شركة الشرق • وشركة شرق الهند هى التى مكنت التجارة الانكليزية من النفوذ الى الشرق الاوسط عن طريق البحر الاحمر ، والخليج الفارسى •

وأولى المحاولات ، للاتجار مع موانى البحر الاحمر ، قامت بها سفينتان بلغتا عدن فى ابريل (نيسان) من ١٦٠٩ ، بعد ان امضتا عاما كاملا فى البحر حاملة بضائع حديدية ورصاصية وقصديرية وصوفية • ولم يقدر النجاح لتلك المحاولة ، لان عدن كانت يومذاك ميناءا صغيرا ، تقطنه حامية قليلة ولعدم تيسر تصريف البضائع فى ذلك الميناء الصغير ، اضطر الوكيل العام جون جوردين[1] للسفر الى صنعاء فى اليمن ، ومنها الى موخا ، ولكنه فشل فى اقناع باشا صنعاء ، لتخفيض الضرائب على البضائع المستوردة • كما ان الباشا حذره من السفر مرة اخرى داخل اليمن ، ما لم يحصل على جواز خاص من القسطنطينية •

وتمت البعثة الثانية بقيادة السر هنرى مدلتون[2]، فى عام ١٦١٠ – ١٦١١

---

(١) John Jourdain. (٢) Sir Henry Middlton.

ولم يكن مصيرها احسن من مصير البعثة الاولى • فعندما بلغ مدلتون ورفقاؤه مدينة موخا ، القى حاكم المدينة القبض عليهم ، واودعهم السجن ، ولكنهم فروا وعادوا الى سفينتهم • وانتقاما لما اصابهم ، حاصر مدلتون الميناء • وظل الميناء محاصرا الى ان غير حاكمه • واعتذر الحاكم الجديد ، مدعيا بان البعض من اتباع مدلتون اساءوا التصرف وتعرضوا بالنساء ودنسوا المساجد واختسوا خمرة اشتروها من يهود المدينة •

وكانت الشركة تسعى للمتاجرة مع موانى البحر الاحمر ، تعويضا عما يلحقها من خسارة بمتاجرتها مع الهند • فقيمة المواد المصدرة الى الهند كانت لا تسد نفقات البضائع المراد نقلها الى انكلترة • ولهذا وجدت الشركة ، ان خير علاج للوضع ، هو نقل بعض بضائع الهند سواء اكانت انكليزية ، أم شرقية الى موخا ، لبيعها الى المصريين مقابل سبائك ذهبية • ومع ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل ، فقد ثبتت أقدامها فى الشرق حتى ان الانكليز أسسوا لهم معملا فى مدينة موخا ، وبقى هذا المعمل قائما حتى أواسط القرن الثامن عشر • فمن موخا استورد الانكليز القهوة ، الشراب الذى اثر فى الحياة الانكليزية تأثيرا بالغا ، بعد ان اتخذت محلات بيع القهوة ندوات اجتماعية يرتادها الناس •

وتجدد أمل المتاجرة مع ايران ثانية بعد ان ارسل الشاه رسائل الى جيمس الاول والى غيره من حكام اوربا • وكان مبعوث الشاه روبرت شيرلى(٢) احد الاخوين الانكليزيين الذين وضعا أسس الجيش الايرانى النظامى • وكان الغرض الاول من ايفاد شيرلى هذا ، ايجاد اسواق للحرير الايرانى الخام • ومع انه فشل فى مهمته لشدة الشروط التى كان الايرانيون يفرضونها ، فقد ساهم فى ايجاد علاقة تجارية مع انكلترة ، عندما استصدر

(٢) Robert Sherley.

من الشاه ثلاثة أوامر شاهانية تجيز لبواخر شركة شرق الهند ، دخول موانى الخليج • ونتيجة لذلك اتخذت جسك قاعدة للتجارة الانكليزية ، حيث قامت الشركة بشراء سبعين بالة حرير ، باعتها الى الشركات الانكليزية الاخرى بارباح عالية •

ولاقت محاولة الانكليز ، للنفوذ الى تجارة ايران عن طريق الخليج الفارسى ، مقاومة عنيفة من لدن البرتغاليين • ومع ان انكلترة كانت على وئام مع اسبانيا سنة ١٦٠٤ و البرتغال كانت احدى مقاطعاتها ، فان البرتغاليين الموجودين فى الهند لم يستقبلوها الاستقبال الحسن • وانهم لم يكتفوا باستعمال اساليبهم السياسية ، للتأثير على ملك الهند ، المغولى الكبير ، لمنع الانكليز من النفوذ الى الهند • بل واوعزوا الى سفنهم ، التى لم تكن محصنة التحصين الكافى ، لمهاجمة السفن الانكليزية • ومع ان السفن البرتغالية صدت على اعقابها ، فان السفن الانكليزية تكبدت خسائر كبيرة • وامتد الصراع بين الاثنين الى الخليج الفارسى ، حيث اضطرت السفن الانكليزية المثقلة بالحرير الايرانى ، الى صد هجوم برتغالى عنيف ، الامر الذى صير البرتغاليين فى عداء مع الشاه • فلما جاءت نجدة برتغالية الى جزيرة هورموز ، استنجد الشاه بالانكليز ، لابعاد البرتغاليين من الجزيرة ، واستردادها منهم ، مهددا فى حالة رفض الانكليز طلبه الغاء جميع ما منحه لهم من امتيازات تجارية • وقد ادى الهجوم المشترك على البرتغاليين فى الجزيرة ، الى طردهم منها ، والى اتخاذ جاسك على ساحل الخليج مركزا تجاريا بدلا من الجزيرة •

واخذت التجارة الانكليزية فى جاسك بالازدهار ، ولا يعزى الفضل فى ذلك الى التخلص من مزاحمة البرتغاليين ، بل الى فقرة وردت فى الاتفاق المعقود بين الشاه والانكليز • تعفى البضائع الانكليزية بحسبها من الضرائب

التركية وتشرك السلطات البريطانية بما يجنى من ضرائب على البضائع الاجنبية الاخرى • ولما وجد ان جاسك لا تفى بالغرض ، نقل الانكليز مركز تجارتهم ، الى بندر عباس ثم الى ابى شهر • واسست شركة شرق الهند ، عام ١٦٤٠ ، مصنعا لها فى البصرة ، ولضعف التجارة انكليزية مع العراق ، قضى على المشروع ولم يمض على تأسيسه اكثر من عشرين عاما •

ومع ان الخطر البرتغالى تقلص فزال ، فان السفن الاوربية التى تبحر نحو الشرق ظلت عرضة لهجمات القرصان العرب • وقضى على هذا الخطر باتفاق دولى مشترك ، عقد عام ١٧٧٠ ، عهد بحسبه الى الافرنسيين أمر حراسة الخليج الفارسى ، والى الهولنديين أمر حراسة البحر الاحمر ؛ بينما تعهد الانكليز بحراسة البحار الجنوبية •

واعيدت فى القرن الثامن عشر محاولة المتاجرة مع شمال ايران عبر روسيا • وجاء تفصيل هذه المحاولة فيما كتبه جوناس هونوى[1] فى رسائله • وكان هونوى هذا ، يتحلى بشجاعة جسمية ، مكنته من التغلب على المخاطر التى جابهها فى ايران ، لا تقل عن شجاعته المعنوية ، يوم ان حمل أول مظلة شهدتها لندن • وعندما تحدى صاموئيل جونسون ، وهاجم محلات شرب الشاى باحدى رسائله • وكان الهدف الاول لتلك المحاولة بيع الاصواف الانكليزية ، وشراء الحرير الخام من ايران • وكانت شركة الشرق ترغب فى عدم مزاحمة التجار الارمن ، الذين اتخذوا حلب مركزا تجاريا لهم ، والذين كانوا يجلبون البضائع الانكليزية عن طريق حلب الى ايران ؛ سيما وانه كان فى الامكان شراء الحرير الايرانى الخام فى أسواق سنت بطرسبورغ • ولكى تتحاشى الشركة الروسية (الانكليزية) وساطة الوسطاء

---

(١) Jonas Honway.

التجاريين ، استحصلت على اجازة من الحكومة الروسية عام ١٧٤٣ ، للمتاجرة مع موانى بحر قزوين • وسمح للشركة ان تبنى سفينة فى روسيا، لتستخدمها فى تجارتها فى بحر قزوين • وحاولت الشركة ان تبنى سفينة اخرى فلاقت صعوبات جمة ، مردها ظهور المزاحمة التجارية الروسية •

والحقيقة ان العداء الروسى جاء نتيجة تصرفات البعض من الانكليز ، أمثال جون التون[1] ، الذى بدأ حياته بحارا ، ثم صار وكيلا للشركة الروسية فى شمال ايران • وفى اثناء وجوده فى ايران ، استخدمه الشاه ، لبناء سفن لمخر عباب بحر قزوين ، « على غرار السفن الاوربية » • ولم يكن متوقعا كما يقول هونوى ، ان يرحب الروس بظهور سفن ايرانية ، تجارية أم غير تجارية • فى بحر قزوين • وخوفا من أن يتنكر الروس للشركة استخدمت ما تتمكن عليه من ضغط ليعتزل ألتون خدمة الشاه • ولكنه رفض ذلك ، ويقال ان الشاه لم يسمح له باعتزال الخدمة • وبعد جهود جبارة استطاع بناء بعض السفن ، مع كل ما كان يعانيه من عدم رغبة الايرانيين فى العمل ، لانهم كانوا يسخرون اليه بدون اجر وبدون طعام •

وربما كانت المزاحمة التجارية وحدها كافية لوضع نهاية للمحاولة الانكليزية • ومع ذلك ، فقد كان للقنصل الروسى فى شمال فارس من الاسباب ، ما يبرر له مقاومة التجار الانكليز فانه عجز عن فرض ضرائب على التجارة الانكليزية ، شأن ما يفرضه على التجار الارمن ، وهذا ما جعله ان يقنع السلطات الروسية فى استراخان ، بمنع السفينتين الانكليزيتين من العودة الى ايران ، بزعم ان أى بضاعة فارسية تنقلها تلك السفن لا بد وان تكون ملوثة بمرض الطاعون • وكان من نتائج تلك المقاومة ان باعت

---

(٢) John Elton.

الشركة الروسية ، السفينتين الى مزاحميها من التجار الروس بثمن بخس. وفى عام ١٧٤٦ ، منعت الحكومة الروسية ، الانكليز من المتاجرة مع مدن بحر قزوين . وبعد مدة وجيزة من هذا المنع ارتحل وكلاء الشركة عن ايران . وعندما حدثت الثورة التى اعقبت وفاة نادر شاه ، بلغت قيمة البضائع المنهوبة من مخازن وكلاء الشركة نيف وثمانين ألف جنيه . ويظن الوكلاء ان اكثر تلك المنهـوبات ، ذهب الى الروس ؛ وازدحمت دار القنصلية الروسية بكثير من البضائع المنهوبة .